نظريــة القيمــة عنــد ابــن خلـــــدون

الأستاذ : الطيب داودي
كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية
جامعة محمد خيضر بسكرة

الملخص:

يعتبر البحث في القيمة من أهم البحوث التي شغلت أفكار الفلاسفة والمفكرين، منذ قديم الزمان، وقد بـــدأت الملاحظة في هذه القضية المهمة تبرز وتأخذ مكانتها في الفكر الاقتصادي منذ الإشارة إليها من طرف الفلاسفة اليونان، وموضوع القيمة، قد تناوله كثيرا من علماء ومفكري أمم اندثرت آثارها و لم يصلنا منها شئ, ولعل ما كتبه ابن خلدون في مجال القيمة يعتبر من أهم ما توصل إليه الفكر الإنساني في هذا المجال , في الماضي والحاضر

Résumé :

La valeur est un des sujets les plus débatut, au long de l'evolution de la pensée philosofique , et économique. Dans ce contexte , vient la contribution d'Ibn Khaldoun, qui a réussie , au 14 siécle, de déceler, et analysée d'une façon globale, et exeptionnelle, tout les élément de la valeur. Cet article tend a clarifié l'importence de cette cotribution.

تمهيــد :

إن ما تركه ابن خلدون المفكر العربي الإسلامي في القرن الرابع عشر من دراسة حول موضوع القيمة يعتبر بالغ الأهمية ، وجدير بالدراسة والتمحيص نظرا لما استكمل فيه من معظم عناصر القيمة التي توصل إليهـا الفكر المعاصر. ولأهمية هذا الموضوع ومكانته البارزة في الاقتصاد السياسي سنحاول أن نتناوله بالدراسة فيما يلي :

1 : مفهوم القيمة وأنواعها ومحدداتها عند ابن خلدون

إننا نعتقد بأن تحديد قيمة سلعة ما يتوقف على كل العناصر والعوامل المباشرة وغير المباشرة المؤثرة في السلعة والمتأثرة بها. ومن هذا المنطلق الكبير سنحاول توضيح أو إثبات إلى أي مدى توصل فكر ابن خلدون معرفة هذه المحددات التي شكلت تناقضا كبيرا ومناقشة واسعة عند رواد الفكر الاقتصادي الحديث. وذلك فيما يلي :

1.1 : مفهوم القيمة عند ابن خلدون

لقد تعددت النظريات حول مفهوم القيمة، فقد كان مفهوم القيمة ومازال يشغل علماء الاقتصاد، وكلما تطور الفكر الاقتصادي كلما برزت بعض الأشياء الغائبة عن مفهوم القيمة، وإذا كان ابن خلدون قد عاش في بيئة وزمن يبعد بأكثر من أربعة قرون عن هذه المناقشات فكيف كان مفهومه للقيمة ؟

يقول ابن خلدون : " أعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في والاقتناء والقصد إلى التحصيل، فلا بد في الـرزق من سعي وعمل، ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه " (2 : 381)

ويقول أيضا : " إن المفادات والمكتسبات، كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية " (2: 382) ويعني هنا بالمفادات والمكتسبات السلع والخدمات .

وباستقراء نصي الفقرتين المذكورتين يبين بكل وضوح أن ابن خلدون يعيد قيم المنتجات من سلع وخدمات إلى العمل البشري، ويقر بأن العنصر الأساسي لتحقيق المعاش هو العمل، وبهذا يكون ابن خلدون قد أضفى أهمية كبيرة على العمل البشري، حيث جعل مفهوم قيم الأشياء من سلع وخدمات لا تتم إلا بتدخله .

ويظهر هذا بكل وضوح في عبارته التالية : " ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه " الطبيعية ويعني هذا أن الأشياء كلها لا تأخذ قيمتها إلا بتدخل العمل البشري. فقد يبقى كثيرا منها ينفع الإنسان بدون قيمة إذا لم يتدخل العمل البشري، ومثال ذلك العسل في أشهادة، والماء سواء كان جاريا فوق الأرض أو بباطنها ،و كل الفواكه البرية، و كل النباتات الطبية و غيرها مما اكتشفت قيمته بالعمل و مما هو غائب ستكتشف قيمته لاحقا ولكن بتدخل العمل .

مما سبق ذكره يتبين أن مفهوم القيمة عند ابن خلدون تتركز بشكل أساسي عن العمل، وبذلك أبرز أهمية عنصر العمل وصوره في تحديد قيم الأشياء المنتجة، وفي سابقة يقرر ابن خلدون بأن المكاسب هي قيم الأعمال، وأن الأعمال هي سبب الكسب، وكثرة الأعمال هي السبيل إلى الثروة، وسنعود إلى هذا فيما بعد .

يقول إبن خلدون : " إن المكاسب إنما هي قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها " (2: 365).

ومن هنا تبرز أهمية العمل كوسيلة منتجة حقيقية وطبيعية عند ابن خلدون، وهو إذ يجعل العمل هو العنصر الرئيسي للقيمة، ينتبه في هذا الوقت المبكر أربعة قرون قبل ظهور علم الإقتصاد بمفهومه الحديث أن هناك سلعا ذات قيمة للبشر ولكن لم يتدخل فيها العمل البشري، هذه السلع هي المسماة في الإقتصاد السياسي بالسلع الحرة، ولهذا نجده في عبارته الشهيرة المدللة على مفهوم القيمة عنده فيقول : " إن المفادات أو المكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية " (2: 382)فهو يستعمل أداة التخيير "أو" وبهذا لا يجزم بأن كل السلع التي لها قيمة استعمالية إنما هي نتيجة الأعمال البشرية، غير أن استعماله لكلمة " أكثرها" يبين أن ابن خلدون أدرك بأن هذه السلع التي لها قيمة استعمالية دون أن يلمسها العمل البشري هي قليلة مثل أشعة الشمس، والهواء الذي نتنفسه، والأشعة غير المرئية التي تحمي الإنسان من كثير من الأمراض، وغيرها من الغازات والأغلفة الكونية التي تحفظ التوازن البيئي الذي سهل العيش على هذه الأرض وجعل الحياة عليها ممكنة إن إكتشاف ابن خلدون الذي يتعرف فيها على السلع الحرة وهي قليلة كما عرفنا يعززه ويدعمه ملاحظته الدقيقة لنوع من الأشياء التي لا دخل للإنسان في وجودها، ولكن لا يمكن الانتفاع بها إلا بتدخل العمل البشري وفي هذا يقول ابن خلدون :" وقد يحصل له ذلك بغير سعي كالمطر المصلح للزراعة وأمثاله، إلا أنها إنما تكون معينة ولابد من سعيه معها فتكون تلك المكاسب معاشا " (2: 679).

ويتبين من هذا القول أن ابن خلدون يعتبر السلع الحرة ليست من عمل الإنسان، غير أنها تعتبر مساعدة له على إظهار القيم الاستعمالية للأشياء التي تدخل في مساعدتها، فإذا لم تقترن بعمل الإنسان الذي يجعلها مفيدة فإنها تبقى قليلة الجدوى إن لم نقل معدومة في خلق قيم يستفاد بها.

إن هذا المفهوم لقيمة الأشياء التي لا يتدخل فيها العمل الإنساني بشكل مباشر لإبراز منافعها والاستفادة من قيمها الاستعمالية، أو تلك التي تكون معينة كما يقول ابن خلدون ناقشه بعد أربعة قرون رواد المدرسة الكلاسيكية والإشتراكية وغيرهم وذلك في مجال تفرقتهم بين القيم التي تنتج عن العمل البشري ومن القيم التي تأتي من الطبيعة، وقد أطلقوا على هذه الأخيرة تسمية " السلع الحرة " .

إن الحاجات الاقتصادية عند ابن خلدون تستمد قيمتها بشكل رئيسي من مدى ما بذل فيها من جهد، ومن عمل.

يقول ابن خلدون : " لا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول (2: 365) ويعتبر ابن خلدون بهذا سابقا النظريات القيمة التي تركز على العمل لمئات السنين، بالأخص نظريات رواد المدرسة الكلاسيكية وأولهم السير وليام بيتي وسميت وريكادوا وغيرهم ممن جاؤوا بعدهم .

إن ابن خلدون لا يقف عند هذا المفهوم للقيمة، بل يذهب إلى أن مصدر الكسب (الثروة) إنما أساسه العمل الإنساني، ويقرر بأن زيادة الأعمال البشرية سوف تزيد من قيمته مما يزيد من الكسب (الثروة) .

يقول ابن خلدون : " إن المكاسب إنما هي قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمتها بينهم فكثرت مكاسبهم، فتنفق أسواق الأعمال والصنائع ويكثر دخل المصدر وخرجه، ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل أعمالهم، ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية ثم زاد الترف تبعا للكسب، وزادت عوائده وحاجاته، واستنبطت الصنائع فزادت قيمتها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية، ونفقت الأعمال بها أكثر من الأول وكذا في الزيادة الثانية والثالثة ". (2 : 344)

هكذا يتضح بأن مفهوم القيمة عند ابن خلدون أساسه العمل الإنساني وهو بذلك يؤدي إلى ثراء الأمم وغناها، فتقدم الدول في نظره هو ما تراكم من قيم الأعمال الإنسانية، وهو ليس بالضرورة ما قد يتواجد فيها من المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة، وبذلك يكون قد سبق آدم سميث في الإقرار بأن ثروة الأمم إنما أساسها قيم الأعمال البشرية .

2.1 : أنواع القيمة عند ابن خلدون

إذا كان موضوع القيمة بصفة عامة يحتل مكانة بارزة في الإقتصاد السياسي فإن البحث في أنواع القيمة لا يقل أهمية عن ذلك، لأن معرفة هذه الأنواع من شأنه أن يسهل فهم القيمة، وإذا كان هذا التقسيم قد طرح كثيرا

من المناقشات بين المفكرين الغربيين في بداية القرن السادس عشر التجاريين منهم والطبيعيين فابن خلـــدون في القرن الرابع عشر قد استطاع أن يتنبه إلى هذه المسألة الاقتصادية الهامة، فاستطاع أن يفرق بين نوعين من القيم تميز الطبيعة المزدوجة للبضاعة والتي تترجم في خاصتين هما القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية، وسنتناولهما فيما يلي :

1 . 2 . 1: القيمة الاستعمالية عند ابن خلدون

يقول ابن خلدون : " ثم إن الحاصل أو المقتني إن عادت منفعتة على العبد، وحصلت له ثمرته مـــن إنفاقـــه في مصالحه وحاجاته سمي رزقا " (2: 360-361) .

ويلاحظ هنا أن مصطلح الرزق عند ابن خلدون يذهب إلى ما اصطلح عليه في أدبيات الاقتصـــادية " بالقيمـــة الاستعمالية" ويوضح ابن خلدون شروط القيمة الاستعمالية بشكل منفرد النظير، ويمكن إيجاز هذه الشروط في النقاط التالية :

أ– الحصول الفعلي على السلعة واقتنائها :

ويتبين من هذا الشرط أن السلعة إذا لم تكن حاصلة بالفعل عند الفرد، وقادر على التصرف فيها لا يمكـــن أن تشكل قيمة استعمالية، فمجرد الرغبة في الشئ والدافع إلى إقتنائه لا يمثل بأي حال من الأحوال قيمة إستعمالية إلا إذا تم التحصيل الفعلي وحوزة الطلب المرغوب فيه.

ب– حصول المنفعة من الشئ المقتني :

إن الشرط الأول لا يكفي لوحده لتحقيق قيمة الإستعمال، فقد نحصل على السلعة ونقتنيها، ولكـــن قـــد لا يكون الغرض منه هو الإستعمال الشخصي المباشر، ولذلك يضع ابن خلدون شرطا مكملا وضروريا بالنســـبة للشرط الأول وهو حصول المنفعة وعودتها على العبد أي إستعمالها الفعلي من طرف المقتني .

ج– قدرة المنفعة على اشباع حاجة وتحقيق مصلحة خاصة

ويعتبر هذا الشرط أساسي للقيمة الاستعمالية للسلعة أو الخدمة، والذي يدين بأن ذلك الشئ الذي يحصل عليه الإنسان فعليا ويحمل منفعة، قادر أن يشبع حاجة من حاجات مقتنية ويقدم له مصلحة خاصة تكون بحســـب الشئ المقتني .

إن توفر هذه الشروط الثلاثة يجعل من نظرة ابن خلدون للقيمة الاستعمالية نظرة مستوفية .

ومما سبق يتبين بأن لفظة " الرزق" المرادفة للقيمة الاستعمالية في الأدبيات الاقتصادية المعاصرة، هو ما يحصـــل عليه الفرد ويخصصه لإشباع حاجاته المباشرة، وتحقيق مصلحته الخاصة .

إن هذه القيمة، قيمة إستعمال الشيء لا تتأتى إلا بالعمل الإنساني ففي رأي ابن خلدون وبالرغم بأن هذه السلعة أو الخدمة موجهة للإستعمال المباشر إلا أن العمل الإنساني لا بد أن يلامسها وإلا اعتبرت في نظرته من الأمور غير الطبيعية .

يقول ابن خلدون : " فلا بد في الرزق من سعي وعمل " (2: 381) ، وبناء على هذا فإن عنصر العمل يدخل بشكل رئيسي في تحديد القيمة مهما كان نوعها .

1 . 2 . 2 : القيمة التبادلية عند ابن خلدون

يقول ابن خلدون : " ثم إن الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعته على العبد،وحصلت له ثمرتــه مــن إنفاقــه في مصالحه وحاجاته سمي رزقا ... وإن لم ينتفع به في شئ من مصالحه وحاجاته فلا يسمى كسبا " (2: 381)

ويلاحظ أن النوع الثاني من الأشياء المقتناة التي ذكرها ابن خلدون في الجزء الثاني من المقولة الســابقة " وإن لم يكن ...) لا يكون القصد من إقتنائها هو الإستعمال الشخصي المباشر، وإنما يقصد مبادلتها بغيرها فإنها تدخل في دائرة السلع ذات قيم الإستبدال (2 : 381)

ويمكن إيجاز شروط القيمة الإستبدالية عند ابن خلدون فيما يلي :

أ – الحصول الفعلي على السلعة واقتنائها، وقد تم شرحه في القيمة الاستعمالية .

ب– عدم الانتفاع به في مصالحه وحاجاته الخاصة .

ويعني هذا الشرط أن هذه الأشياء المقتناة من سلع وخدمات لا توجه إلى الإستهلاك المباشر من طرف مالكها، و لا تتضمن المواد التي تستعمل للإشباع الخاص .

ج – الإمتلاك سعي الفرد وقدرته

يذهب ابن خلدون في هذا الشرط اعتبار الأشياء ذات القيمة التبادلية لا بد من إمتلاكها عن طريــق الســعي والقدرة، وهو بذلك يؤكد مرة أخرى على أهمية العمل الإنساني في تشكيل قيم الأشياء مهما كان نوعها، وهو يعارض إدخال الدوافع الأخلاقية في القيمة، ويعارض مقولة الحصول على القيم الاستعمالية بالعدل (1: 70)

يقول ابن خلدون : " إنما الله يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر " (2: 365)

وهنا ينفي الحصول على منافع القيم بالطرق التي لا يدخل فيها العمل الإنساني .

ومما سبق التطرق إليه إلى أنواع القيمة عند ابن خلدون يلاحظ كل عارف ودارس للإقتصاد السياسي بشكل عام وموضوع القيمة بشكل خاص أن ابن خلدون في هذا الوقت المتقدم من الزمن، زمن علم الإقتصاد الحديث الذي عرف على رواد المدرسة الكلاسيكية ومن جاء بعدهم قد توصل وبشكل علمي ودقيق إلى المعرفة الدقيقة لقسمي القيمة قيمة الإستعمال و قيمة الإستبدال .

و إذا كانت قيمة الإستعمال عند إبن خلدون لا تتحقق إلابشروطها الثلاثة المذكورة سابقا وتنتهي بالإستعمال المباشر وحصول المنفعة والمصلحة، فإن قيمة الإستبدال تذهب إلى أبعد من هذا، حيث يكون مكانها الطبيعي هو السوق، وتأخذ قيمتها عند التبادل .

وقد استعمل ابن خلدون عدة مصطلحات تستعمل لتعيين التبادل، ومن أهمها البيع، المعاملة،التجارة، غير أنه استعمل بصفة أساسية للتدليل على قيمة الإستبدال " القيمة التبادلية" مصطلح العوض أو الأعواض .

يقول ابن خلدون : " ... ما تحصل عليه يد هذا إمتنع عن الآخر إلا بعوض" (2: 365) أي أن ما يمتلكه أي فرد لا ينتقل إلى أي فرد آخر إلا بمبادلته بما لدى الطرف الآخر أي تعويضه بما يعادله من سلع وخدمات تساوي قيمتها قيمة الشئ المبادل أو المعوض .

ويرجع ابن خلدون زيادة القيم التبادلية إلى التقسيم الإجتماعي للعمل، لأن الفرد لا يستطيع أن يلبي حاجاته بنفسه، فلا بد من تبادل للسلع والخدمات ين الأفراد، وهذا التبادل في رأي ابن خلدون يجب أن يتم على أساس من التكافؤمن ناحية الجهد والعمل المبذول، وهذه القيمة التبادلية للسلع، والتي تتحدد بشكل أساسي في السوق، بحيث يمكن مبادلتها بشئ غير مملوك، فهي إذن تعبر عن قيمة موضوعية تتوقف على اعتبارات خاصة بالسلعة، بصرف النظر عن قيمتها في نظر شخص معين .

ونلاحظ أن ما توصل إليه ابن خلدون في معرفته الدقيقة والموضوعية لأنواع القيمة يجعله من بين أهم المفكرين الذين تناولوا هذا التقسيم سواء في القديم أو عند رواد المدرسة الكلاسيكية. أو في عصرنا الحديث، وهذه النظرة الثاقبة عند ابن خلدون تجعلنا نعتقد بأن الفكرة إذا كانت علمية وموضوعية فإنها لا تموت بتعاقب القرون ولكنها تبقى تحمل بذور الحياة، فإذا جاء من يغذيها وينـــقب عنها برزت ونمت وأخذت مكانتها بين الأفكار العلمية المعاصرة .

1. 3. : محددات القيمة عند ابن خلدون

قد يعتقد الدارس لموضوع القيمة عند ابن خلدون أن محددها الوحيد هو العمل غير أن ذلـــك يعتـــبر المحـــدد الأساسي وهناك محددات أخرى بجانبه سنتعرض إليها فيما يلي :

1 . 3 . 1: العمـــــل

إن الملاحظ مما سبق ذكره في الفرعين السابقين لا شك تستنتج بأن العمل الإنساني عند ابن خلدون يعتبر المحدد الأساسي للقيمة، حيث نراه يؤكد في أكثر من موقع في مواضيع المقدمة على أن السلع تستمد قيمتها من العمل

الذي بذل فيها، بل في بعض المواقع توحي عباراته بأن هناك جزما بأن قيمة السلع والخدمات هي الأعمال الإنسانية (5: 5)

يقول ابن خلدون : " اعلم أن ما توفر عمرانه من الأقطار وكثرة ساكنه، إتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم والسبب في ذلك كثرة الأعمال التي هي سبب الثروة "

حيث يبرز لنا أهميته في العمل كوسيلة منتجة حقيقية وطبيعية .

يقول أيضا : " إذ ليس هناك إلا العمل وليس بمقصود بنفسه للقيمة، وقد يكون مع الصنائع في بعضها وغيرهـــا مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل، إلا أن العمل فيهما أكثر"

ومن هذه العبارة يتبين بأن ابن خلدون لم يجعل العمل هو المحدد الوحيد للقيمة، وإن اعتبره هو الأساسي، ولكن هناك محددات أخرى بجانب العمل قد لا ترقي إلى نفس أهمية العمل الإنساني ولكنها ضرورية في تحديد قيم الأشياء وهذا ما جاء في عبارته " ... مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل " ثم يؤكد بأن أكثر هذه المحددات هو العمل الإنساني فيقول : " إلا أن العمل فيهما أكثر "

وقد ذهب ابن خلدون إلا أن حجم القيمة يتناسب طرديا مع العمل المبذول فيها حيث يقول : " إن المكاسب هي قيم الأعمال فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها " (17: 365)

وتجدر الإشارة إلا أن ابن خلدون لم يكتف بإثبات بأن العمل البشري هو المحدد الأساسي للقيمة بل استطاع أن يميز بين مفهوم أنواع العمل المحدد للقيمة، حيث فرق بين نوعين أساسين من هذا العمل، وهما علـــى التـــوالي العمل الظاهر (الحي) والعمل المخزون (المتراكم) وسنحاول أن نوضح مفهومهما عند ابن خلدون باختصار فيما يلي :

أ – العمل الظاهر

يقول ابن خلدون : " فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول، لأنه إن كان عملا بنفسه مثـــل الصنائع فظاهر، وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن، فلا بد فيه من العمل الإنساني ... وإلا لم يحصل ولم يقع به الانتفاع " (2: 381)

ويتمثل العمل الظاهر عند ابن خلدون في ذلك النوع من العمل الذي يدخل بصفة مباشرة ويساهم في إنتـــاج السلعة أو الخدمة ويعبر عليه بالعبارة التالية :

" إن كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر "، ويفهم من هذا التعبير الخلدوني إنه ذلك العمـــل الـــذي يمكـــن ملاحظته خلال العملية الانتاجية، ويكون قادرا على خلق قيمة مباشرة، وإذا أردنا التوضيح أكثر يمكن القـــول بأن العمل الظاهر يمكن في الصنائع أي يبذل خلال مراحل تشكيل السلعة في العملية الانتاجية .

ب – العمل المخزون

يقول ابن خلدون :"وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلابد فيه من العمـــل الإنســـاني ... وإلا لم يحصل و لم يقع بالانتفاع " (2: 381).

وهنا ينتبه ابن خلدون إلا أن هناك عملا غير العمل الظاهر وهو ذلك الجهد البشري الذي بذل في فتـــرة زمنية سابقة للعملية الانتاجية وخزن أو تراكم في السلع والخدمات التي قد تدخل في العمليات الانتاجية اللاحقة (3: 110)

ويذهب ابن خلدون إلى أن الأشياء التي تراكم فيها غير الظاهر للعيان أو المستتر الذي في زمن ماض معين كالحيوان والنبات والمعدن لابد أن يكون من العمل الإنساني وإلا لم يحصل و لم يقع به الانتفاع .

وهذه التفرقة الدقيقة بين أنواع العمل الظاهر والمخزون الذي جاء بها ابن خلدون في القـــرن الرابـــع بقيـــت صحيحة وعلمية و لم يتمكن الفكر الاقتصادي المعاصر معرفتها إلا في القرن الثامن عشر، حيث أطلق آدم سميث رائد المدرسة الكلاسيكية على هذا التقسيم، مصطلح " العمل الآني، والعمل الماضي " بينما سماه ريكـــاردو " العمل الظاهر والعمل المتراكم" أما ماركس فقد سماه " العمل الحي والعمل الميت" .

وهكذا نلاحظ من هذه التسميات المختلفة لرواد الفكر الأوروبي الرأسمالي أو الإشتراكي أنهم لم يضيفوا شيئا إلى مفهوم وتقسيم العمل عند ابن خلدون وإنما قاموا بتغيير التسميات (5: 65).

لقد برز في الإقتصاد الوضعي لا سيما الأوروبي في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر نقاش كبيرحول قيمة الأشياء، فقد ساد الإعتقاد بوجود القيمة الاستعمالية والتبادلية، ثم ظهر في الفكر الكلاسيكي اتجاه آخر يقوم على أن للسلعة قيمة استبدالية ولها منفعة، ثم تطور هذا الفكر ليعتقد أصحابه بتجريد القيمة من عنصر المنفعة، ثم ساد الإعتقاد لفترة طويلة بأن ليس للمنفعة دخل في تحديد القيمة بوجود عوامل أخرى تحدد القيمة ثم ظهر تيار فكري آخر يرى بأن المنفعة تعتبر من العناصر الأساسية المحددة لقيمة الأشياء. وغيرها من المناقشات التي انصبت في تحديد العوامل التي تحدد القيمة، كنفقات الانتاج، وتكلفة السلعة من نفقات النقل والضرائب والمكوس والتوقعات وما إليها .

وبعد أن ناقشنا المحدد الرئيسي للقيمة وهو العمل الإنساني في نظر ابن خلدون نحـــاول أن نتطـــرق إلى بقيـــة المحددات التي دارت حولها المناقشات الفكرية لنتعرف عن رأي ابن خلدون فيها .

لقد عظم ابن خلدون دور العمل في حياة الإنسان، و لم يعتبره ضروريا من أجل إشـــباع الحاجـــات المتناميـــة للإنسان فحسب، ولكن اعتبره حاجة ذاتية يثبت بها الإنسان ذاته، فلا قيمة للإنسان ذاته إذا لم يكن لديه عمل.

يقول ابن خلدون : " وأما ما دون ذلك من الخدمة فسببها أن أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته ويكـــون عاجزا عنها لما ربي عليه من خلق التنعم والترف فيتخذ من يتولى ذلك يقطعه عليه أجرا من ماله، وهذه الحالـــة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان (2: 360)

1 . 3 . 2 : المنفعـــــة

يقول ابن خلدون : " إنه "القوت" لولا تخزين الناس له خوفا من حدوث نقص في إنتاجه مستقبلا لبـــذل دون ثمن ولا عوض "(2: 363)

ويقول أيضا : "واعتبر غاشية الإناس بغاشية العجم من الحيوانات وفتات الموائد بفضـــلات الـــرزق والتـــرف وسهولتها على من يبذلها لاستغنائهم عنها في الأكثر لوجود أمثالها لديهم "(2: 362) .

ويتبين من هذا القول أن ابن خلدون عرف أن للمنفعة دورا كبيار في تحديد قيم الأشياء، بل نعتقد أن ابن خلدون قد اكتشف قانون تناقص المنفعة وتعرف عليه ففي عبارة : " لولا تخزين الناس له خوفا من حدوث نقص في إنتاجه مستقبلا لبذل دون ثمن ولا عوض " وهذا يدل على أنه كلما زاد المعروض من الشيء كلما أدى إلى إنخفاض قيمته إلى أن يبذل بدون ثمن ولا عوض أي لا يبادل بأي سلعة أخرى وهكذا تصل المنفعة الحدية لقيمة هذا الشئ إلى الإنعدام أي تساوي صفرا .

ثم نلاحظ في العبارة الأخرى : " وسهولتها على من يبذلها لإستغنائهم عنها في الأكثر لوجود أمثالها لديهم " .

فزيادة السلع وما إليها تؤدي إلى الإستغناء عنها أي تقل منفعتها لوجود أمثالها لديهم حتى تصـــل إلى درجـــة الإستغناء أي ينعدم عنها قيمة الشئ لذهاب منفعته لوجود أمثالها لديهم .

ويتبين من هذا أن ابن خلدون يعتبر المنفعة من محددات السلعة فإذا زادت المنفعة إلى الشئ ورغب فيـــه النـــاس ارتفعت قيمته، والعكس صحيح، ولهذا ولتدعيم هذا الفرض يقدم ابن خلدون مثالا رائعا يبرر.. دخول عامـــل المنفعة لمحدد من محددات القيمة .

يقول ابن خلدون : " ... وذلك أن حكمة الله في الحجر – الذهب والفضة- وندورهما أنهما قـــيم لمكاســـب الناس ومتمولاتهم ، فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك وكثر وجودهما حتى لا يحصل أحـــد من إقتنائهما على شئ " (2: 360)

إن الوصول إلى صنع الذهب والفضة اللذين يعتبران العنصر المقبول والشائع بين الناس في التبـــادل يـــؤدي إلى تناقص المنفعة في إقتنائهما حتى تصل هذه المنفعة إلى الحد الذي يعرض فيه الناس على مبادلتهما لإنعدام المنفعـــة فيهم .

وبهذا يكون ابن خلدون قد دلل بكل علمية وموضوعية على أن المنفعة هي محددات القيمة، بل نراه من خلال هذا الطرح قد توصل إلى قانون تناقص المنافع أو سمي في الأدبيات الاقتصادية بقانون تناقص المنفعة ، فهو بذلك يبين بكل موضوع أن رابطة قوية بين الحاجة والمنفعة، فحاجة الناس إلى السلع والخدمات تكسبه منفعة تؤدي إلى زيادة قيمة الشئ، وكلما كانت الحاجة إلى السلع والخدمات قليلة أو مفقودة كلما أدى ذلك إلى فقدان جزء من قيمته، ويبقى في تناقص إلى أن تنعدم الحاجة فيفقد الشئ قيمته عندها نقول أن المنفعة تساوي الصفر، وهذا مادلت عليه عبارة ابن خلدون : " لبذل دون ثمن ولا عوض ".

1 . 3 . 3 : تكاليف الانتاج

يؤكد ابن خلدون بأن نفقات الانتاج تؤثر في تحديد قيم الأشياء، وقد لاحظ ابن خلدون هذه الظاهرة في الزراعة حيث تتأثر قيمة المزروعات بنفقات الانتاج التي تدخل في الزراعة وقد ترتفع قيمة المنتوجات الزراعية إذا ما أدخلت نفقات جديدة على عملية الانتاج الزراعي .

يقول ابن خلدون : " لما ألجأهم النصارى إلى سيف البحر وبلاده المتوعرة الخبيثة الزراعة النكدة النبات وملكوا عليهم الأرض الزاكية والبلد الطيب فاجتاحوا إلى علاج المزارع والفدن لإصلاح نباتها وفلحها وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤونة، وصارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم " (2: 328).

إن هذه النظرة التي استنتجها ابن خلدون من ملاحظة ظاهرة تغير في قيم المنتجات الزراعية بين بلاد المغرب وبلاد الأندلس عندما انتصر عليهم الإسبان وأرغموهم على التقهقر إلى الجبال والأراضي الأقل خصوبة، ولهذا فقد ارتفعت قيم المنتوجات الزراعية على ما كانت عليه في السابق حيث الأراضي الخصبة والمناخ الملائم وعن مثيلتها في بلاد المغرب والسبب في هذا الإرتفاع هو تلك الجهود والأعمال الإنسانية الإضافية التي دخلت بشكل أكبر من السابق في إصلاح الفدن ونباتها، وإيصال المياه إليها ومد الجسور وما إليها مما تتطلبه الأرض الوعرة، ضف إلى ذلك قلة خصوبة التربة، مما اضطر أهلها إلى إضافة المواد المخصبة لها مثل الزبل وما يدخل في شاكلته .

هذه النفقات الزائدة أدخلت في تحديد قيم المنتوجات الزراعية الأمر الذي أدى إلى إرتفاع قيمها .

1 . 3 . 4 : زيادة الضرائب، واشتغال السلطان بالتجارة

إن القيمة كما تتأثر بنفقات الانتاج فإنها تتأثر كذلك بنفقات أخرى مثل الضرائب المتنوعة التي تفرض من قبل الدولة على الأفراد، كما أن القيمة تتأثر كذلك بعوامل أخرى مثل إنتحال السلطان للتجارة وسنحاول أن نبين هذين المحددين بإختصار فيما يلي :

أ – زيادة الضرائب

يقول ابن خلدون : " وقد يدخل أيضا في قيمة الأقوات ما يفرض عليها من المكـــوس والمغـــارم للســـلطان في الأسواق " (2: 364)

ويبين من هذه العبارة أن الضريبة تمارس أثرها على القيمة فتجعلها ترتفع، لأن الباعة يلجأون إلى تحميل المشترين عبء هذه الضريبة، وقد تكون في أكثر الأوقات تحميلا كليا، وهذا ما يسمى في الأدبيات الاقتصادية المعاصرة بنقل العبء الضريبي .

يقول ابن خلدون : " إن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواق وأسعار حاجاته، ثم تزيدها المكوس غلاء ... والمكوس تعود إلى البياعات بالغلاء لأن السوق والتجار كلهم يحسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقون حتى في مؤنة أنفسهم فيكون المكس لذلك داخلا في قيم المبيعات وأثمانها " (28) إن ابن خلدون قد ذهب في هذه العبارة إلى تعيين وبكل وضوح المحددات التي تدخل بجانب العمل الإنساني في القيمة، فهو يبين من جهة بأن قيم الأشياء ترتفع بازدياد العمران أي التقدم الحضاري ثم يبين محددا آخر يزيد في إرتفاع قيم الأشياء وهي المكوس(الضرائب)، ثم يبين كيف أن التجار لا يتحملون شيئا من الأعباء الضريبة .

بل ينقلوها على قيم السلع والبضائع، حتى تكاليفهم الشخصية ينقلوها أيضا فترتفع قيم الأشياء تبعا لذلك .

ويعتبر هذا الربط بين الضريبة والنفقة بعدا جديدا يضيفه ابن خلدون إلى الدراسات الاقتصادية في ذلك الـــزمن المبكر، ومعنى هذا أن النفقة على مؤونة التاجر تدخل في تحديد قيمة السلعة مثل دخول تكلفة العمل وغـــيره، وقد يكون هذا الأمر هو المتعارف عليه في الأدبيات الاقتصادية من أن أثر الضريبة على قيم الأشياء يتوقف على مدى قدرة البائع على تحميلها للمشتري، وذلك يتوقف على مقدار مرونة الطلب الذي يتحدد بدوره من خلال عوامل منها مدى ضرورة السلعة. (5: 76)

ب – ممارسة الدولة للتجارة

يناقش ابن خلدون ابتعادالدولة عن مهامها الرئيسية في إدارة شؤون البلاد وتسييرها ودخولها السوق بجانب التجار لممارسة التجارة يؤدي إلى تذبذب كبير في قيم الأشياء ويبعدها عن كثيرا على القوام والتوازن الذي هو أساس التبادل من الناس، فمرة قد يؤثر هذا الدخول إلى السوق إلى إنخفاض قيم البضائع والسلع وذلك عندما

تنعدم المنافسة لسلع السلطان وبضائعه نتيجة إحتكاره للسوق وعدم قدرة بقية التجار لمنافسته نتيجة إنخفاض قيم سلع وبضائع السلطان من جهة والخوف من مقارنته من جهة أخرى. وهذا يؤدي إلى إنخفاض قيم السلع والبضائع التي بحوزة بقية التجار .

يقول ابن خلدون : " التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية " (2: 381)

وهذا يضطر التجار والفلاحين إلى بيع سلعهم على كساد من الأسواق بأبخس ثمن وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب رأسماله فيقعد عند سوقه، لأن إحتكار السلطان الذي يمثل الدولة يفقدهم كل مبادرة وكل تحكم في الأسعار .

يقول ابن خلدون : " إن تدخل السلطان يوقف كل مظاهر التوازن في السوق، لأن الرعايا متقاربون في اليسار، والمزاحمة بعضهم بعضا فتنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب، وإذا رافقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثيرا منهم فلا يكاد أحد يحصل على غرضه (2: 360)

أما التذبذب الذي يحصل في المرة الثانية فيكون بارتفاع قيم السلع والبضائع نتيجة سيطرة السلطان على السوق في عملية الشراء حيث يعمد إلى شراء السلع والبضائع من أربابها بأسعار زهيدة ثم يبيعها بالثمن الذي يفرضونه هم " أي الحكام " .

يقول ابن خلدون : " وقد تنتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين في البلدان أنهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدهم، ويفرضون لشراء ذلك ما يشاؤون، ويبيعونها في وقت لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضونه من الثمن " .

وهكذا تنتفع قيم البضائع والسلع في السوق نتيجة هذه التصرفات من الأجراء والمتغلبين في البلدان، وبهذا التحليل الدقيق يكون ابن خلدون قد تبحر في محددات القيمة، بشكل غير مسبوق .

1. 3 . 5 : تكاليف النقل والآفات السماوية

اعتبر ابن خلدون أن تكاليف النقل والآفات السماوية تدخل بشكل أو بآخر في محددات القيمة وسنتعرض إليها فيما يلي :

أ – تكاليف النقل :

بالرغم بأن وسائل النقل في عهد ابن خلدون كانت بدائية إذا ما قورنت بالوسائل التي ظهرت في العصر الحديث إلا أنها كانت ضرورية لعصرها ذلك، إذ كانت تلعب دورا هاما في توفير السلع والبضائع في الأسواق التي تفتقد إليها، ولا يخفى على عاقل أن هذا الدور الهام لم يكن بالأمر اليسير كما هو الحال اليوم، ولكنه كان

شاقا ومتعبا، وفيه تدوم الرحلة أكثر أو أقل من شهر حسب تباعد نقاط التبادل أو الأسواق، وقد توصل ابن خلدون إلى تفسير هذه الظاهرة حيث لاحظ بأن ارتفاع تكاليف النقل وزيادة مخاطر الطريق تؤدي إلى الزيادة في قيم السلع والبضائع، وقد علل ابن خلدون السبب إلى زيادة المخاطرة، فكلما كانت درجة المخاطرة كبيرة، كلما أدت إلى ارتفاع قيم السلع المنقولة .

يقول ابن خلدون : " وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة، أو في شدة الخطر في الطرقات يكون أكثـــر فائدة للتجار وأعظم ربحا، وأكفل بحوالة الأسواق، لأن السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة ... وإذا قلت وعزت غلت أثمانها، وأما إذا كان البلد قريب المسافة. والطرق سابل بالأمن، فإنه حينئذ يكثر ناقلوها، فتكثـــر وترخص أثمانها " (2: 396)

ويتبين من هذا القول أن ابن خلدون ربط زيادة ونقصان قيم السلع والبضائع في هذه المحددة بنقطتين أساسيتين، أولهما خطورة الطريق وبعد وقرب الأسواق .

ب – الآفات السماوية :

الآفات السماوية التي ذكرها ابن خلدون في اعتقادنا هي تلك الكوارث الطبيعية التي تحدث قضاء وقدر، وليس للإنسان يد في حدوثها، وهذه الكوارث تؤدي إلى حدوث كثيرا من الأضرار سواء بالمنتجين أو التجار، وهذه الكوارث مثل الفيضانات والحرائق والزلازل والبراكين وما إليها من ظهور أمراض في النبات والحيوان فيهلكه، وغيرها من الآفات كالجراد والجفاف وما إليهما ...

يقول ابن خلدون : " فتفضل الأقوات عند أهل المصر من غير شك فترخص أسعارها في الغالب إلا مـــا قـــد يصيبها في بعض السنين من الآفات السماوية " (2: 363)

ويتبين من هذه العبارة الخلدونية أن هذا المحدد هو دوري وليس غالبا في في تحديد قيمة الأشـــياء إذ أن هـــذه الآفات لا تظهر بصفة دائمة ومستمرة .

وخلاصة هذا البحث تبين بكل وضوح بان نظرية القيمة التي شكلت دراستها مناقشات فكريـــة حـــادة وتناقضات كبيرة بين المفكرين الاقتصاديين , ولاسيما الغربيين منهم , قد تم تناولـــها بشكل علمي متفـــوق من طرف المفكر العربي الإسلامي ابن خلدون بفارق زمني يفوق أربعة قرون .

الهوامش :

1- عارف دليلة: الفكر والوقائع الاقتصادية، منشورات جامعة دمشق .

2- عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة ، دار القلم بيروت، 1976.

3- راشد البراوي: تطور الفكر الاقتصادي، دار النهضة العربية، 1976 .

4- ربيع محمود الروبي: المقدمة – مرجع سابق ص .

5- شوقي أحمد دنيا: ابن خلدون مؤسس علم الإقتصاد –دار معاذ للنشـــر والتوزيـــع 1993 ص 5 .